من الفنون النثرية في العصر العباسي

كان النثر الفني في أوائل العصر العباسي مزيجاً من عدة ثقافات متباينة، وألوان فكرية مختلفة، وكان قوامه العلوم والمعارف والثقافات الفارسية والهندية واليونانية.

وقد استطاع النثر العربي بما يتحلى به من مرونة أن يحتوي كل هذه المعارف والعلوم، ونتج من ذلك أن تعددت شعبه وفروعه العلمية والفلسفية والتاريخية والأدبية والاجتماعية، فوجدنا كتب التفاسير وكتب الأحاديث وكتب الفلسفة والتاريخ والطب، والصيدلة والهندسة إلى غير ذلك من العلوم والمعارف التي أنشأها العرب أو ترجمت من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وعلى الرغم من ذلك فقد ظل النثر العربي محتفظاً بمقوماته الفنية وطابعه العربي الذي يتميز به.

هذا بالإضافة إلى الأنواع الأدبية التي ظهرت في العصر العباسي مثل:

- **فن الخطابة** التي كان لها دوافعها السياسية في أوائل العصر العباسي، حيث أنبرى يدافعون عن حقهم فيما تولوه من خلافة، وأنهم أولى بها من غيرهم لقرابتهم من آل البيت.

كما كانت هناك الخطب المناوئة للعباسيين وبخاصة من العلويين الذين استقر في أذهانهم أنهم أولى بالخلافة من بني العباس وأنهم استولوا عليها دون وجه حق، فكل هذه المعاني صيغت في فن الخطابة وكان كل فريق يتبارى في الدفاع عن موقفه من خلال مخاطبة الناس وحسن الإلقاء.

كما كانت هناك الخطابة الدينية التي نالت قدراً من الازدهار والتقدم في العصر العباسي ، وبخاصة في بيئة الوعاظ والنساك وأهل الدين، وكانت خطبهم تعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ المعبرة ، وصياغتها وسبكها في عبارات فصيحة تدل على إحساس مرهف وذوق رفيع .

هذا بالإضافة إلى المحاورات والمناظرات التي كان يجريها المتكلمون من المعتزلة وغيرهم والتي كان لها أثر بارز في تطور النثر العربي ووضع أصول علم البلاغة العربية .

✍ **ومن الفنون النثرية** التي ظهرت في العصر العباسي ، وزاد نشاطها وازدهرت ازدهاراً واضحاً الرسائل الديوانية ، فقد كان لها دوافعها التي أدت إلى ازدهارها ومن أهم تلك الدوافع أنه من كان يُظهر براعة ومهارة في دواوين الخلافة تقبل عليه الدنيا والمنح والعطايا ، ويرقي إلى رئيس الديوان الذي يعمل فيه وقد يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، أو وزيراً للخليفة .

كما كان يشترط فيمن يتولى الكتابة : إحسان صناعة الكتابة بمعرفة مادتها اللغوية والأسلوبية المطلوبة ، وأن يكون على قدرة بلاغية تمكنه من الكتابة الرائعة وأن يكون على دراية بالمعارف والعلوم كعلم الفقه واللسان والحساب والطب والنجوم والكيمياء وعلوم الكلام من فلسفة ومنطق وسائر أنواع المعارف كي يرقي إلى الدرجات العليا والمناصب المرموقة .

وقد ظلت أساليب الرسائل مزدهرة في العصر العباسي ، رغبة من أربابها في الحياة الرغدة ، القائمة على العطايا الفائضة ، وكان من أبلغ الكتاب في

العصر العباسي وبخاصة الأول منه : طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين .[1]

✍ **ومن الفنون النثرية** التي تنافس فيها الأدباء والشعراء والكُتاب ، الرسائل الأخوانية والأدبية ، إذ كان لكل خليفة أو وزير أو وال كاتب هو لسان حاله إن لم يكن هو الكاتب نفسه ، وذلك لما أخذوا به أنفسهم من ضروب الثقافة وسعة الإدراك والإحاطة .

هذا وقد دارت في كتب الأدب خلال العصر العباسي رسائل إخوانية وأدبية دبجها كتاب الدواوين والشعراء والأدباء ، وكانت موضوعاتها تدور في محيط الاعتذار الشخصي ، أو سؤال الود ومواصلة المحبة ، ومنها ما كتب في مجال وصف الكتاب والقلم ، ومنها ما كتب في وصف الجنَّة والنار وهذه من قبيل الرسائل الأدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

لكن لا يفوتنا أن أساليب النثر في هذا العصر قد غلب عليها السجع حتى أصبح أبرز سماته آنذاك ، بالإضافة إلى البديع كالطباق والجناس والمشاكلة ، مع الالتزام بالصور والأخيلة والتشبيهات التي توافق روح العصر وذوقه .

---

١ - أنظر جزء من رسالة إلى ابنه عبد الله في تاريخ الطبري ج١٦٠/٧ وما بعدها .

من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

ترجمة أبي العلاء : ، أصله ومولده :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري وكنيته ابو العلاء ، واسم بلده معرة النعمان ، وهي قرية صغيرة في شمال سوريا بين حلب وحمص .

وقد ولد يوم الجمعة الثامن والعشرون من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية . وهي توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية.

نشأته وثقافته :

في السنة الرابعة من عمره (٣٦٧ هـ) أصيب المعري بالجدري ، فكاد يودي بحياته ، ولم يغادره حتى ذهب بعينيه وأصيب بالعمى ، وبهذه الحادثة تمت أول نكبه أعدها له القدر ، فكان لها في حياته أكبر الأثر ، ثم ذهب وهو على هذا الحال إلى الدراسة في " حلب " بعد أن أتم الدراسة على أبيه ، وكانت حلب آنذاك مكتظة برجال العلم والأدب ، الذين ملأوا حلب علماً وأدباً ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء ، ثم سافر إلى أنطاكية وفيها اطلع على نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة ، وكان بها كثير من الروم الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها .

ثم سافر إلى طرابلس الشام ، ومر باللاذقية ونزل بدير فيها ، وأخذ عن راهب كثيراً من أرائه في الفلسفة وغيرها ، وقويت الصلة بينه وبين النصارى واليهود ، وتمكن من دراسة دينهم ومناقشتهم فيه ، ثم عاد إلى بلده ومسقط رأسه معرة النعمان ، ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧هـ فرثاه بكنيته المعروفة في سقط الزند ، وهي تمثل شعره في تلك الفترة .

وقد ظل في بلدته حتى سنة ٣٩٨ ، ثم رحل إلى بغداد وهناك ذاع صيته بعد أن أطلع على العلوم والمعارف التي كانت تذخر بها بغداد آنذاك ، واشترك في المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة ، ثم تحولت به الأقدار والأحوال فغادر بغداد وقد مرضت أمه وأصبح فقيراً ، على الرغم من أنه كان شاعراً وكان يمكنه أن يتكسب بشعره مثل كثير من الشعراء في عصره ، لكن أنفته منعته أن يتكسب بشعره وأدبه ، وقد حزن أهل بغداد على رحيله عنهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٠هـ .

وهو في طريقه إلى المعرة إذ وافاه نعي أمه ، فتمت نقمته على الدنيا .

وكانت هذه الصدمات التي تلقاها في حياته ، سبباً في اعتزاله عن الناس ، لكن الناس لم يتركوه لعزلته ، فالتف حوله الطلاب وأقبل عليه الكثير من المعجبين والمريدين له ليتلقوا العلم على يديه ، وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطي خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، فكان فقيراً زاهداً لم يتكسب بأدبه وعلمه .

وبعد ذلك يقتضينا المقام أن نذكر أنه أول من خط للشعر العربي طريقاً جديدة فلسفية خاصة به وملأ شعره بأسمى المباديء الاجتماعية والأدبية والعالمية التي انفرد بها - دون سواه - من بين شعراء العربية .

يقول عنه الدكتور طه حسين : " فأبو العلاء فذ في الأدب العربي كله، وصَل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده".

بل إنه يعده أحد الرواد العالميين القلائل فيقول : " فأبو العلاء فذ يعد من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الأجيال من الحضارة ورقي الشعور. فإذا فخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور، وإذا فخر الأدب اللاتيني القديم

بلـــوكـــريس ، وإذا فخـــرت الحضـــارة الأوربيـــة الحديثـــة بأدبائهـــا وفلاســـفتها المتشائمين ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء " .

ثـم يتنـاول صـفاته العلميـة فيقـول :" فقـد كـان أبـو العـلاء فيلسـوفاً عميـق الفلسـفة صـادق النظـر في أمـور الحيـاة والأحيـاء ، وكـان أبـو العـلاء شـاعراً رفيـع الشـعر نقيـه خلابـه يبلـغ بـه مـن الروعـة الهادئـة في كـثير مـن الأحيـان مـا لم يبلغـه الفحـول مـن شـعراء العربيـة في قـديمها وحـديثها ، وكـان أبـو العـلاء أديبـاً ، وعـي مـن الأدب مـالا نعـرف أن أحـداً مـن أدبـاء العـرب وعـي مثلـه . وكـان أبـو العـلاء صـاحب خيـال نفـاذ ، يصـعد إلى أرقـى مـا يسـتطيع الخيـال أن يبلـغ وينفـذ إلى أعمـق مـا يستطيع الخيال أن ينفذ إليه [1]

وقبـل شـهادة طـه حسـين هـذه ، فقـد بلـغ أبـو العـلاء منزلـة رفيعـة بـين مريديـه آنـذاك وإمـارة ذلـك أن وقـف علـى قـبره نيـف وثمـانون شـاعراً يرثونـه بُعيـد وفاتـه ، فكـان بـلاغ قـولهم مطلـع قصـيدة لأحـدهم - أبـي الفـتح الحسـن بـن عبـد الله بـن حصينة - حيث يقول :

العلـــم بعـــد أبـــي العـــلاء مضـــيع

والأرض خاليـــة الجوانـــب بلقـــع

هـذا مثـل مـن أمثلـة الإعجـاب الـذي اتفـق عليـه أولئـك الشـعراء ، وكـانوا فيـه ترجمانـاً لمئات أو ألوف المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ، ولم يقفوا على ثراه . [2]

وكانـت وفاتـه يـوم العاشـر مـن ربيـع الأول سـنة تسـع وأربعـين وأربعمائـة هجرية ، عن عمر نيف على الثمانين عاماً .

١- صوت ابي العلاء ص٦ ، ٧ دار المعارف .

٢- أنظر رجعه أبو العلاء - ص ٤ ، عباس محمود العقاد .

آثـــــاره :

كـان لأبـي العـلاء مؤلفـات عديـدة ، لكـن أكثرهـا قـد فقـد لسـوء الحـظ ، ولم يبـق للمكتبـة العربيـة منهـا إلا ديـوان سـقط الزنـد ويحتـوي شـعره في عهـد الشـباب - ولـيس فيـه إلا بضـع قصـائد بلغـت الـذروة في الإجـادة ، أمـا البـاقي فـأكثره ، متكلـف أفسدته المبالغات والتقليد ، وقد اعترف بذلك في مقدمته لهذا الكتاب .

ومـن أثـاره كـذلك كتـاب اللزوميـات ، ويعـد مـن أنفـس الـدواوين العربيـة ويحتـوي علـى منهجـه الفلسـفي في الشـعر علـى الـرغم مـن هـذا القيـد الـذي أخـذ بـه نفسـه وهـو مضـاعفة القافيـة ، ولـه كـذلك ديـوان الـدرعيات ، واعـتني فيـه بوصـف الـدرع ولـه رسـائله الـتي طبعهـا مرجليـوث ، ورسـالتا الغفـران والملائكـة ، وكتـاب الأيـك والغصـون وقـد بلغـت أجـزاؤه أكثـر مـن مائـة جـزء وعلـى الـرغم مـن ذلـك فقـد فُقد كله .

هـذا وقـد كـان أبـو العـلاء محبـاً لـلأدب (شـعره ونثـره) وكـان لـه في كـل منهمـا بعض المأثور. ومن أشعاره في فلسفته عن الموت يقول :

يمـــــوت قـــــوم وراء قـــــوم
ويثبـــــت الأول العزيـــــز
كـــم هلكـــت غـــادة وكعـــاب
وعمـــــرت أمهـــــا العجـــــوز
أحرزهـــــا الولـــــدان خوفـــــاً
والقبـــر حـــرز لهـــا حريـــز
يجـــوز أن تبطـــيء المنايـــا
والخلـــد فـــي الـــدهر لا يجـــوز

ومن أشعاره كذلك :

أولـو الفضـل فـي أوطانهـا غربـاء
تشـذ وتنـأى عـنهم القربـاء
فمـا سـبئوا الـراح الكميـت للـذة
ولا كـان مـنهم للخـراد سـباء
وحسـب الفتـى مـن ذلـة العـيش أنـه
يـروح بـأدنى القـوت وهـو حبـاء

التعريف برسالة الغفران :

رسـالة الغفـران هـي عمـل أدبـي رائـع غايـة في الدقـة والإبـداع والخيـال السـامق، كمـا أنهـا آيـة في البلاغـة والفصـاحة اللفظيـة ، وآيـة للـتفكير العربـي ، وآيـة الخيـال العربي ، وآية السخرية العربية .

وهـي في مضـمونها ، تصـور مقابلـة الشـاعر لـبعض الأشـخاص في العـالم الأخـر ممـن نعمـوا بـالغفران أو حرمـوا منـه - في تصـوره وخيالـه - وفيهـا يناقش كـل واحـد مـنهم فيسـأل أصـحاب الفريـق النـاجي " بم غفـر لـك "؟ فيجيـب كـل واحـد مـنهم بمـا نجـاه مـن العـذاب ، ويشـرح لـه السـبب في دخولـه الفـردوس ، ويصـف لـه كيـف يتمتـع بـه ، كمـا يسـأل بعـض أفـراد الفريـق الثـاني ممـن حقـت عليـهم اللعنـة وكتـب عليـهم الشـقاء في تصـوره " لم لم يغفـر لـك قولـك كـذا ؟ فيجيبـه أكثـرهم عـن السـبب ، ويشـرحون لـه مـا يقاسـون مـن ألم وعـذاب ، ويصـمت بعضـهم لانشـغالهم بمـا هـم فيـه من نكال وغصص.

وهذا معناه أن الرسالة تقوم على الحوارات التي تجري في عالم الآخرة، كما يتمثلها ويصدرها خيال الشاعر أو الأديب، ومما دفعه إلى كتابة هذا العمل أنها جاءت رداً على رسالة ابن القارح، وهو على ابن منصور" الملقب بدوخلة، والمشهور بابن القارح وكان قد أرسلها إلى أبي العلاء طالباً الرد عليها، وهذا ما دفعه إلى هذا الإبداع الأدبي لذا فقد أثنى أبو العلاء على رسالة ابن القارح وأطرى كلماتها لكي يتوصل إلى غايته التي رمى إليها من إبداع رسالته، فقد تمثل أبو العلاء الملائكة ترفع كلمات رسالة ابن القارح إلى السماء متخذاً من قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... ﴾[1]

وسيلة إلى تمثل الأشجار وقد غرست في جنة الفردوس، بعدد كلمات رسالة ابن القارح لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية الكريمة.

وقد استدعى ذكر أشجار الجنة ذكر أنهارها وما فيها من خمر، وتنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها وتعرفه بأهلها، ثم جره ذلك إلى وصف دخوله الجنة مع من غفر لهم وعلى الوجه المقابل ذكر أهل النار وزيارته لهم وسؤلهم عما جرهم إلى هذا المصير المؤلم، وهكذا تسير الرسالة في هذا المضمون.

وفي تعريفها ووصفها يقول الكاتب محمد فريد وجدي: " إن أجمل ما كتبه- أي أبو العلاء - وأجمعه لآرائه في الدين والعلم والأخلاق وفي أساليب الشعر وفنونه، ورجاله وعيونه، آيته الموسومة برسالة الغفران، فقد صورت من نفسه ما لم يصور شعره للدهماء ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي، لكن النثر - لخلوه من هذه الحوائل - تتجلى فيه روح صاحبه بأحلى مظاهرها ..."

١- سورة إبراهيم: من الآية ٢٤، ٢٥.

" من رسالة الغفران "

يقول أبو العلاء المعري في وصف رسالة ابن القارح :

وصلت الرسالة [١] التي بحرها بالحكم مسجور [٢] ومن قرأها لاشك مأجور [٣] إذ كانت تأمر بتقبل الشرع [٤] وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع ، وغرقت في أمواج بدعها الزخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها من شفع ونفع وقرب عند الله ، وفي قدرة ربنا - جلت عظمته - أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من اللهب ، معاريج [٥] من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء بدليل الآية :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[٦]

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾[٧]

وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباريء - تقدس - أثير. [٨]

١- يعني رسالة ابن القارح .
٢- مملوء.
٣- مثاب .
٤- التزامه أو العمل على إتباعه والتمسك به .
٥- جمع معراج وهو السلم أو المصعد (بكسر الميم وفتحها).
٦- سورة فاطر : من الآية ١٠.
٧- سورة إبراهيم: من الآية ٢٤، ٢٥.
٨- مأثور : محبوب.

ويقول في وصف الفردوس :

وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله - بذلك الثناء - شجر في الجنة لذيذ إجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط [1] والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجرة قيام وقعود ، يقولون - والله القادر على كل شيء عزيز " نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلي ابن منصور [2] فخبأ له إلى نفخ الصور وتجري في أصول ذلك الشجرة أنهار تختلج [3] من ماء الحيوان [4] والكوثر يمدها في كل أوان ، من شرب منها النغبة [5] فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت [6] وسعد من اللبن متخرفات لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر [7] من الرحيق [8] المختوم كما قال علقمة [9] :

تشفي الصداع ولا يؤذيه صاليها

ولا يخالط منها الرأس تدويم [10]

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد [11] وأباريق خلقت من الزبرجد، لو رآها أبو زيد [12] لعلم أنه ما تشبب بخير، وهزيء بقوله :

١- ظليل .
٢- هو ابن القارح.
٣- تنتزع ، تحرك، تطير.
٤- الحياة.
٥- النغبة : الجرعة .
٦- الضياع
٧- أنهار كبيرة .
٨- أطيب وأفضل أنواع الخمر .
٩- علقمة الفحل توفي سنة ٥٦١ شاعر جاهلي عمر طويلاً اسمه علقمة ، وكنيته ابن عبده ، ولقبه الفحل ، وموطنه نجد، وعشيرته تميم - وهو من سادتها .
١٠- لا يخامر . تدويم : الدوار يعقب السكر .
١١- الذهب .
١٢- أبو زيد لعله يعني أبا زيد الأنصاري المتوفي سنة ٢١٥هـ الثقة في النحو واللغة ، وأمام كثير من علماء البصرة ، ومؤلف كتاب النوادر في اللغة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٤ ، وكتاب القوس والترس ، وكتاب (الإبل) وكتاب (خلق الإنسان) وكتاب (المطر) وكتاب (المياه) وكتاب (بيوتات العرب) وكتب أخرى .

وأبـــاريق ، مثـــل أعنـــاق طيـــر الـــ

مـــاء قـــد جيـــب فـــوقهن خنيـــف[١]

ولـو نظـر إليهـا علقمـة لـبرق[٢]وفـرق[٣] وعلـم أنـه قـد طـرق [٤] ، مـا ابـن عبـدة [٥] ومـا فريقـه ؟ قـد خسـر ، وكسـر إبريقـه . نظـرة إلى تلـك الأبـاريق خـير مـن نبـت الكرمـة العاجلية ومن كل ريق ضمنته هذه الدار الخادعة .

ولـو بصـر بهـا عـدي بـن زيـد [٦] لشـغل عـن المـدام والصـيد واعتـرف بـأن أبـاريق مدامـه أمـر هـين لا يعـدل بنـا بـت مـن حمصـيص [٧] أو مـا حقـر مـن خـر بصـيص [٨] فأما الأقشير السعدي [٩] فإنه قال - ولعله - سيندم :-

أفنـى تـلادي ومـا جمعـت مـن نشـب

قـــرع القـــوازيز أفـــواه الأبـــاريق[١٠]

مـا هـو ومـا شـرابه ؟ تقضـت في الخائنـة آرا بـه ! لـو عـاين تلـك الأبـاريق لأيقـن أنـه فـتن بـالغرور وسـر بغـير موجـب للسـرور ، وكـم علـى تلـك الأنهـار مـن آنيـة زبرجـد وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق يخال أن لمس أحرق ، كما قال الصنوبري :

١- جيب : شق أوقد ، خنيف : ثوب غليظ أبيض من الكتان.
٢- برق : تحير . وهش .
٣- فرق : اشتد فزعه .
٤- طرق: ضعف عقله.
٥- كنيته علقمة الفحل .
٦- عدي بن زيد العبادي شاعر جاهلي نصراني . قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة دخل الأرياف فثقل لسانه .
٧- بقلة رملية حامضة .
٨- نبات له حب يتخذ منه طعام والغرض هنا التحقير .
٩- الأقشير كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة ، كان أحمر الوجه فسمي الأقيشر ، وكان خليعاً ماجناً سكيراً ، وهجاء مقنعاً . يغضب إذا قيل له " يا أقيشر ".
١٠- تـلادي : قـديمي ، نشـب : مـال ، القـوارير : جمـع قـازوزه وهـي قـدح الشـرب - والمعنـى أذهـب ثروتـي قـديمها وحديثها - إدماني معاقر الخمر .

تخيلـــــــه ســـــــاطعاً وهجـــــــه

فتـــــأبي الـــــدنو إلـــــى وهجـــــه

وفي تلـك الأنهـار أوان علـى هيئـة الطـير السـابحة [1] والغانيـة عـن السـائحة[2] فمنهـا مـا هـو على صـور الكراكـي وآخـر تشـاكل المكـاكي ، وعلـى خلـق طـواويس وبـط ، فـبعض في الجاريـة وبعـض في الشـط ، ينبـع مـن أفواههـا شـراب كأنـه مـن الرقـة السـراب ، لـو جـرع منـه جرعـة الحكمـي [3] يحكـم بأنـه الفـوز ، وشـهد لـه كـل وصـاف للخمـر - مـن محـدث وعتيـق أن أصـناف الأشـربة المنسـوبة إلى الـدار الفانيـة كخمـر عانـه وأذرعـات وغـزو وبيـت رأس ، وجلـب مـن بصـرى ومـا اعتصـر بصـرخة أو أرض شـام . ويعـارض تلـك المدامـة أنهـار مـن عسـل مصـفى مـا كسـبته ، النحـل الغاديـة إلى الأنـوار ، ولا هـو في مـوم [4] متـوار . ولكـن قـال لـه العزيـز القـادر " كـن " فكـان واهـاً لـذلك عسـلاً لـو جعلـه الشـارب المحـرور غـذاءه طـول الأبـد مـا قـدر لـه عـارض مـوم [5] ولا لبس ثوب المحموم وذلك كله بدليل الآية :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ....﴾[6]

١- المائية .

٢- البرية.

٣- الحكمي : هو الحسن بن هانيء الحكمي ويكني أبا نواس ١٤٥-١٩٩ هـ ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد وهو في الثلاثين من عمره وهناك طار صيته ، واتصل بالرشيد ثم بابنه المأمون .

٤- موم : شمع.

٥- موم مرض شديد الوطأة .

٦- سورة محمد : من الآية ١٥.

ولو خالط من [1] عسل الجنان وما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة كالصاب والمقز [2] لعدمن اللذائذ المرتقيات .

فأما الأنهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية ونهرية ، فإذا أمد المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لوقعت الجرعة منه في البحر - الذي لا يستطيع ماءه الشارب لحلت منه أسافل وغوارب [3]

١- المن كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أوميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعا مائة وثمانون مثقالاً ، وعرفا مائتان وثمانون أو المقصود مكيال صغير .
٢- المقز : المر .
٣- المغارب هو الكاهل أو ما بن السنام إلى العنق والمقصود به هنا سطح البحر .

تحليل وتعليق

تناول أبو العلاء في رسالته موضوعاً مهماً في حياة البشرية وبخاصة المؤمنين الذين يأملون من الله المغفرة والرضوان ، يوم القيامة ، والفوز بجنات الفردوس بما فيها من نعيم مقيم لا يقطع ولا يمنع.

وقد عالج أبو العلاء هذه القضية علاجاً ينم عن اقتدار، ويشهد على اتساع ثقافته واتقاد ذهنه ، ونبوغه الفطري السليم ، ويكشف عن مدى تعلقه بالدار الآخرة وعزوفه عن الدنيا وبغضه لها .

والحق أنه بدأ رسالته بوصف رسالة ابن القارح التي كانت باعثاً حقيقياً له في كتابة هذه الرسالة الموسومة " برسالة الغفران " فبين أنها أي رسالة إبن القارح مملوءة بالدرر واللآلأ ، إذ إنها تأمر بالإقبال على الشرع والتمسك بآدابه وتعاليمه السمحة كما أنها تعيب الذين ينأون بأنفسهم عن نور الهداية والحق ، ومن منطلق قول الله تعالى :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[1]

وقوله جلت قدرته :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾[2]

من منطلق هذا القول الكريم ، تخيل الكاتب أن هذه الرسالة بما تشتمل عليه من معان قيمة وحكم بالغة ، قد رفعتها الملائكة على سلم من ذهب وفضة لتستقر عند الله جلت عظمته .

١- سورة فاطر: من الآية ١٠.
٢- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤، ٢٥.

ثم انتقل الكاتب إلى ما يرغب به نفس المؤمن، ويحفزه إلى عمل الصالحات والاجتهاد في طاعة ربه، لينال الدرجات العلا وجنات الفردوس التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فوصف الفردوس وما فيها متخذاً من القرآن والسنة دليلاً على صدق ما يقول ففي الفردوس أنهار الخمر وأنهار اللبن، وأنهار العسل المصفي وأنهار تجري فيها مياه رائقة عذبة من شرب منها جرعة يأمن من الضياع والموت.

ويتطرق الكاتب إلى وصف أواني الجنة من الكؤوس الذهبية والأباريق الفضية والزبرجدية وهي أواني لا تضاهيها أواني الدنيا ولو كانت على قدر من الأبهة والعظمة.

وقد استعان الكاتب على إيراد هذه الأوصاف بعدة طرق فنية منها:

- أنه أعتمد في إيراد هذه الأوصاف على ثقافته الإسلامية التي استقاها من القرآن الكريم والسنة النبوية، مما يدل على أن الكاتب كان ذا ثقافة إسلامية ملمة بالقرآن والسنة فيما يتعلق بوصف الجنة ونعيمها. ومظهر ذلك الآيات القرآنية التي أوردها في ثنايا الرسالة مثل قوله تعالى في وصف الكلام الطيب والعمل الصالح وجزائه:

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾[1]

وفي وصف الجنة وما فيها من نعيم للمتقين يورد الكاتب.

١- سورة فاطر: من الآية ١٠.

قول الله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ....﴾[1]

هذا بالإضافة إلى الألفاظ الموحية المعبرة عما يتحدث عنه في وصف الجنة وأهلها مثل : الكوثر، الرحيق المختوم - كؤوس طير، أباريق - آنية - ياقوت - خمر - نخيل - ثمرات - وكلها كلمات تتناسب مع وصف الجنة التي أعدها الله للذين منّ عليهم بالمغفرة .

- ومن طرائق التعبير كذلك والتي دلت على ثقافته العربية بالإضافة إلى ثقافته الإسلامية ما أورده الكاتب من أسماء لفحول الشعراء في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور مثل علقمة الفحل في العصر الجاهلي ، وعدي بن زيد ، ومن شعراء عصره أبو نواس ، وجاء ذكرهم في معرض أنهم لو علموا حقائق ما أعد الله للمؤمنين من النعيم لأقلعوا عن غيهم .
- كما كان من طرائق تعبيره أنه استخدم السجع الذي جاء بمثابة جرس موسيقي أعطى للرسالة رونقاً وبهاء وإن جاء في بعض الأحيان متكلفاً متصنعاً . هذا بالإضافة إلى بعض الألفاظ الغريبة التي لا يستطيع فهمها مثل القوازيز، خربصيص خمصيص - جعافر - موم إلى غير ذلك من

١- سورة محمد : من الآية ١٥.

الكلمات التي يندر استعمالها ، كما أطال في سرد عبارات غامضة أو ضرب أمثال شارده أو ذكر مالا يعني إلا العربي القح في ذلك العهد .

- استطاع الكاتب في هذه الرسالة أن يوظف خياله توظيفاً رائعاً ، انفرد به انفراداً تاماً ، وبخاصة في هذا الفن النثري ، فلم يسبق إلى هذا الأسلوب الفني الذي يعتمد على الخيال وحسن الفهم ، مما أعطي لها الصبغة الفنية التي خلدتها في سجل الفن الأصيل .

والناظر في هذا النص يجد فيه من الوحدة والتمازج ما يبعث على الإعجاب بعقلية هذا الكاتب وموهبته الفذة ، وقدرته الفنية ، التي أسهمت في صياغة هذا الفكر والتعبير عن ذلك الخيال المبهر ، في قالب فني رائع علا سجعه وانسجم نظمه وكثرت غرائبه وأوحت كلماته ، وسلمت معانيه .

كما تمثل الرسالة تقدم النثر ورقيه في العصر العباسي ومدى ما وصل إليه من ازدهار وتطور على يد هذا الكاتب الذي تأثر بعلمه وهذا بعض الكتاب العالمين في بعض أعمالهم الإبداعية مثل تأثر " دانت " في الكوميديا الإلهية .